# روسيا : من لوسيان فيور

لست أدعي اني متخصص في شؤون الاتحاد السوفييتي ، لكني لبثت سنين كثيرة اقرأ المؤلفات عن المجتمع السوفييتي والعقائدية السوفييتية. وأقمت سنين عديدة اتردد على دروس باللغة الروسية ، وحصلت على معرفة ركيكة بها . وكان أملي في الذهاب الى الاتحاد السوفييتي هو ان افعل ما فعلته ذات مرة في اليابان — اعني ان ادخل في مناقشات مع فلاسفته ، وعلماء الاجتماع فيه ، وطلابه ، وان اخاطبهم قبل ان تشطب شكوكهم وتخبطاتهم في البحث لجان تحرير المجلات ، ورجال الادارة ، والبيروقراطيون . وقيض لي ان اتبين ان الامر يقتضيني شهراً او يزيد لكي اتعلم في الاتحاد السوفييتي ما لم احتج الى اكثر من اسبوع لتعلمه في اليابان . ففي الامكان مثلا في اليابان ان تلتقي بسهولة مع شيع شتى من الزنجاكورن، اما في الاتحاد السوفييتي فقد كان لزاماً ان ادبر مقابلاتي مع حلقات الطلبة الاحرار بحذر . وبينما كان الاساتذة الماركسيون في اليابان يتحدثون بحرية عن نزعاتهم المتباينة ، كانت هناك بين الاساتذة السوفييتيين استجابة شرطية اولية هي الاعراب عن اتفاق اجماعي بشأن المادية الجدلية ، حتى حين كانت الخلافات بينهم بحيث تبدد الاتفاق صراحة الى افتراق ، وتمزق الأردية العقائدية اربا اربا .

وقد تحدثت خلال اربعة شهور ونصف مع اكثر من خمسين فيلسوفاً وعالماً اجتماعياً سوفييتياً ، واستغرق الحديث ساعة احياناً وطال خمس ساعات احياناً أخر . وفي معهد الفلسفة الملحق بالاكاديمية السوفييتية للعلوم في موسكو، القيت خمس محاضرات على الباحثين الذين تراوح عددهم بين العشرين والخمسين . وقصدت طشقند لمحادثة اعضاء معهد الفلسفة والقانون في ازبكستان ، ومضيت الى تفليس للدخول في مناقشات مستفيضة مع العلماء في معهد الفلسفة بجمهورية جورجيا . وفي لينينغراد ، استفسرت عن مشاريع علماء الاجتماع العاملين بجد في معمل الابحاث الاجتماعية . وجاء اكثر ما تعلمته عن طريق المناقشات مع الفلاسفة السوفييتيين الذين كانوا يبدون اعتراضات ويلقون اسئلة في محاضراتي.

كانت محاضرتي الاولى عن « تطور مذهب ديوي البرغماتي». وكان جمهور الحاضرين يتألف في معظمه من اعضاء قسم الفلسفة البورجوازية وعلم الاجتماع البورجوازي في المعهد . وأبانت المناقشة التي اعقبت المحاضرة كيف يجعل الموقف العقائدي السوفييتي من الصعب عليهم ان يتناولوا تاريخ الافكار بروح تجريبية .

وفي الدقائق القليلة الاخيرة من المحاضرة ، نظرت في الزعم الذي وجدته في الكتب السوفييتية ومؤداه ان ديوي هو فيلسوف الاستعمار الامريكي . وقلت ان ديوي منذ مؤلفاته السياسية الاولى كان ناقداً للعقائدية الاستعمارية ؛ وان بحثه في العقلية الهمجية عام ١٩٠٢ كان موجهاً ضد الاستعمار العنصري في اعقاب الحرب الاسبانية الامريكية ؛ وانه عاش في الصين عامين ، وشهد حركة الرابع من ايار ( مايو ) ١٩١٩ وكتب طائفة من المقالات الممتازة دفاعاً عن برنامجها في مكافحة الاستعمار ؛ وانه كان من نقاد الاستعمار الامريكي في المكسيك؛ وانه تلقى دعوة شخصية من كروبسكايا ، وربما كان ذلك بايعاز من لينين ، للمساعدة في اعادة تنظيم التعليم السوفييتي؛ وانه زار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٢٨ وكتب سلسلة من التقارير الحماسية الحارة بشأن التجربة السوفييتية ؛ واخيراً ان الهجوم السوفييتي على ديوي باعتباره فيلسوفاً استعمارياً انما بدأ في منتصف الثلاثينات حين انتقد ديوي محاكمات موسكو وحركات التطهير فيه .

وقلت: « انتم انفسكم قد توصلتم منذ ذلك الحين الى تبين ان ديوي كان محقـاً وستالين كان على ضلال بشأن هذه المحاكمات » .

واصغى الفلاسفة الشبان من بين الحاضرين بانتبـاه ، ولم يتحدوا هذه الملاحظات . ولكن الرئيس نبـه كل فرد الى ان يتذكر اني انما اورد « آرائي الشخصية » ، وانه يجب الا يبرح بالهم ان ديوي قد أيد تروتسكي ، وان تروتسكي كان يحاول اعادة النظام الرأسمالي في الاتحاد السوفييتي . كان هذا امراً يبعث على الاستغراب . فما كان هؤلاء بالأميين ، بل كانوا نخبة اعلام البحث السوفييتي في شؤون الفكر الغربي، وكان عليهم جميعاً ان يتقبلوا هذا الهراء . واعقبت ذلك اسئلة عن النتـائج التي توصلت اليهـا وعن منهجي ، ثم اعطيت الكلمة للحجة السوفييتي في المذهب البرغماتي الامريكي ، يوري ملفيل . فقـال ان ديوي كان فعلا فيلسوف الاستعمار الامريكي ، وان كل الحقـائق التي سقتها كانت عـارية عن الاهميـة ؛ لأن ديوي كان « من الناحية الموضوعية » مؤيداً للاستعمار ؛ واستشهد بكتـاب امريكي يقول ان ديوي اصبح من اعداء الشيوعية ، قبل ان يصبح ذلك هو النزعة الشائعة بزمن طويل .

وألححت على الرئيس ان يسمح لي بدقائق قليلة للرد ( والعرف المتبع للحزب الشيوعي هو اعطاء الكلمة الاخيرة للمتحدث بلسانه ) . واشرت الى انه كان ماركسياً متعصباً ، بلغ به التعصب لعقيدته حداً استحال عنده على اية طائفة من الحقـائق ان تزحزحه عن الاعتقاد بأن ديوي كان « من الناحية الموضوعية » فيلسوفاً للاستعمار ؛ وان هذا كان استخداماً لتعبير « الموضوعية » بمعنى لا يمكن التحقق منه وذلك كيما يتفق مع التحيزات العقيدية المسبقة . ( وتعالى ضحك مرح من جانب القـاعة الذي يشغله الشبان ) . ثم حـاولت ان ابين كيف ان تاريخ الفلسفة الامريكية لا يؤيد القـانون الماركسي القـاضي بان المذهب المادي هو الفلسفة التقدمية ، والمذهب المثالي هو الفلسفة الرجعيـة . فمذهب التعالي مثلاً كان الفلسفة التي تعتنقها اكثر الجماعات ثورية بين انصار الاصلاح في التـاريخ الامريكي — اعني مفكري الساحـل الشرقي الذين كرسوا انفسهم قبل الحرب الاهلية لخدمة الحركات الاشتراكية والهادفة الى الغاء التفرقة العنصرية وتحرير العبيد. وقلت اني كنت ماركسياً عهداً ما، ولكن خبرتي ودراساتي الفلسفية والاجتماعيـة اقنعتني بان هناك حدوداً اساسية تقيد المذهب الماركسي وتحد منه.

ومن الصعب المغالاة في تصوير الدرجة التي دمر بها العهد الستاليني الفلسفة الاصيلة والعلوم الاجتماعية، ومدى بقاء آثاره حتى الآن . فلا وجود لاستمرار تراث النقاش الفلسفي وتدعيمه . وقد سألت احد الفلاسفة الشبان، وهو صاحب كتاب عن الاخلاقية الحدسية الانكليزية ، ان كان بوسعه ان يعطيني عنوان كتاب جيد عن تاريخ الفلسفة السوفييتية ؛ واشرت الى ان لدينا في الولايات المتحدة عدداً من الكتب في تاريخ الفلسفة الامريكية . واجاب بعد تفكير يسير بانه ليس هناك كتاب من هذا القبيل في تاريخ الفلسفة السوفييتية. وقال ان السبب بسيط: فهم غير محتـاجين اليه لانهم ، على خلاف امريكا ، ليس لديهم مدارس فكرية مختلفـة ؛ فالكل يعمل ضمن اطار الفلسفة الماركسية. وبدا لي هذا الجواب مرادفاً للاعتراف بان الحيـاة الفلسفية في بلده من التفاهة بحيث لا تستحق الكتابة عنها ؛ وفيم تجشم عناء كتابة تاريخ عن التعليقـات والشروح على « الحقيقة » التي سبق ان كتب عنها ماركس ولينين بوضوح كاف؟ ومضى الفيلسوف الشاب فأضاف انه كان قد سبق اعداد فصل عن الفلسفة في عهد لينين لادماجه في الجزء السادس من التاريخ العام للفلسفة، ولكنـه تعرض لنقد كثير بحيث لم يتسن نشره ابداً . وواضح ان الصمت عن جيـل المفكرين السوفييتيين المباد لايزال يعتبر امراً يقتضيه التروي والتعقل .

وهاك حادثة وقعت اثناء مناقشة محاضرتي الثانية عن « الدراسة الاجتماعية للعلم » تصور بوضوح حي الاغفال الرسمي للماضي الفلسفي السوفييتي . كنت اعرض مادة نشرت في الشهر التالي في كتاب « المثقف العلمي » . وقلت، رداً على سؤال ، اني اختلف مع بحث ماركسي هام في هذا المجال . وسألني احدهم عن البحث الذي اقصده ، فأجبت بانه مقالة للعالم السوفييتي ب . هسن بعنوان « الجذور الاجتماعية والاقتصادية لكتاب نيوتن : المبادىء »، نشرت عام ١٩٣١ في كتاب اسمه ... ونظر الرئيس الى المترجم ، وتبادلا في ومضة رسالة غير ملفوظة ، فقاطعني المترجم : « لا نعرف اي شيء عن المؤلف . ولا نعرف اسمه » . وأومأ الرئيس برأسه مؤيداً . ونظرت الى الحاضرين. ولا كلمة ، ولا سؤال عن العالم السوفييتي الذي اشرت اليه . لو كان هذا قد حدث في اي اجتماع عادي ، لكان من الجدير بالعلماء ان يستقصوا بشغف عن المرجع الدقيق لبحث هام منسي لأحد مواطنيهم . ولكنهم بنظرة واحدة تلقوا تحذيراً : لا تسألوا عن هذا الشخص . وما من شك في ان كتاب « العلم على مفترق الطرق » كان معروفاً للرئيس والمترجم كليهما : وكان المقال الافتتاحي فيه بقلم نيكولاي بوخارين الذي لم يرد اليه اعتباره بعد ، ومن الواضح ان هسن نفسه اختفى اثناء عهد ستالين . ولا يزال اسماهما مغلفين في طوايا الكبت الجماعي للذاكرة السوفييتية ؛ وعلى العالم السوفييتي الحكيم ان يتفادى الاشارة الى مؤلفاتهما .

وكانت محاضرتي الثالثة عن « الفكر الامريكي المعاصر » . واخترت هذا الموضوع لأني اردت ان ابرز اهمية التباين الشاسع في الفلسفات الامريكية، وهو ما اسميته « قانون الطيف » ، وبموجبه يكون توزيع الفلسفات بالدرجة الاولى ثمرة الفروق في المزاج الفردي ، و « قانون الاجنحة » ، وبموجبه تنبسط كل حركة فلسفية ، سواء كانت برغماتية او مثالية او مادية، في اجنحة اليمين واليسار والوسط. وتكلمت عن فروق الاجيال بين الفلاسفة الامريكيين، وقلت ان مثل هذا الطيف من الفلسفات قد يتبدى، لو ان الاحوال عادية ، في الاتحاد السوفييتي، وان هذا امر مألوف في المجتمعات التي لا ينحرف فيها الطيف بفعل ضغط خارجي .

وسرعان ما وجه الي تحد في هذا الاجتماع وفي المناقشات التالية بان اطبق هذين « القانونين » على الفلسفة السوفييتية . وحين فعلت ذلك اول مرة ، واشرت الى التباين الذي لاحظت انه بدأ يظهر بين الفلاسفة السوفييتيين ، قيل لي ان اسابيع قليلة من المناقشات لا تعتبر اساساً كافياً لحكم من هذا القبيل؛ وان كل الفلاسفة السوفييتيين هم ماديون جدليون . وعلى مر الشهور ، وبتراكم المناقشات ، زاد وضوحاً لدي ان هناك الواناً متباينة من الفلسفات المتصارعة تبزغ الآن في الاتحاد السوفييتي ، وانها تندرج كلها تحت مقولة « المادية الجدلية » في اتزان غير ثابت . وانما هي السلطة الدكتاتورية ، وليس الاتفاق الفكري ، التي تفرض لجام عقائدية مخططة على امزجة متباينة . ومع ذلك، فحق في اطار العقيدة المفروضة، يمكن للمرء ان يتبين آثار قانون الطيف. ففي الاتحاد السوفييتي ، يوجد نظير لكل حركة فلسفية في اوربا الغربية وامريكا . ولنا ان نتوقع ازدهاراً لهذه النزعات الفلسفية المتباينة، لو استبعدت العقائدية المرسومة .

وقد وجدت بين الفلاسفة الشبان بصفة رئيسية ثلاث نزعات : الواقعية العلمية ، والوجودية ، والبرغماتية . فالفلاسفة العلميون هم من اسميهم « واقعيين علميين » ، اي ان « ماديتهم » ليست الا ايماناً بواقع العالم المادي الطبيعي. وهم مشغولون في تتبع المشاكل والنصوص التي كانت تحظى باهمية رئيسية في الفلسفة الامريكية منذ خمس وثلاثين سنة . وقد وجدت مثلاً حلقات تدرس مؤلفات لبرتراند رصل ، من قبيل « المدخل الى الفلسفة الرياضية » و « المعرفة الانسانية » الاحدث منه

عهداً ، ويهتمون بمفـاهيم « البنية » و « وحدة الصورة » ، ويتكلمون كثيراً بلغـة رصل عن ان بنية العالم المادي وحدها هي التي يمكن ان نعرفها. ويميـلون الى رفض نظرية انغـلز في الاحساس « كانعكاس » للعالم ، ويرون ذلك من قبيل « سحر المرآة » . ويرون ان المعنى الاساسي للانعكاس هو « وحدة الصورة » . وتربط جمـاعة الواقعيين العلميين صلات سياسية ودية بالوجوديين السوفييتيين، بمعنى انهم يعتبرونهم « اناساً افاضل » . الا انهم لا يكنون تقديراً عالياً للمزايا الفلسفية للوجوديين ، الذين لم يتحرروا بعد — في رأيهم — من تصور هيغل ان التناقضات يمكن ان توجد في الواقع .

ما هي السمات المميزة للوجوديين السوفييتيين ؟ اولاً انهم يفضلون دراسة ماركس باعتبـاره ممثلاً للمذهب الانساني، وصاحب «المخطوطات الاقتصادية الفلسفية » ، وصاحب مفهوم « الاغتراب » . وقد صاغ احـد الاساتذة هذا الموقف بقوله : « انهم يهتمون بماركس حين لم يكن قد اصبح ماركسياً بعد » . وحين نوهت بان هـذا بالذات هو بيت القصيد — انهم يفضلون ماركس الذي لم يكن ماركسياً — اجاب محتدماً: « بل انهم سيتطورون نحو الماركسيـة » . ويهتم الوجوديون السوفييتيون بمشاكل الحرية والاخلاق التي حرمت على الوعي في العهد الستاليني ؛ وهم يهتمون بكيفية حياة الفرد عوضاً عن تكتيك الصراع الطبقي العقـائدي ، ويستمتعون بقـراءة مؤلفيـن مثـل برديايف وسولوفيوف ويهتمون بفرويد. وهم يجدون الفلسفة الوجودية الالمانية اكثر تشويقاً من الفكر الامريكي، ويشعرون انهم اقرب روحياً الى الالمان منهم الى الامريكيين . ويقول هؤلاء ان الالمـان اعمق ، وانهم يثيرون على الاقل مشاكل الوجود حتى وان لم يتمكنوا من حلها ؛ وهم يعتبرون الامريكيين انصاراً للفهم العامي ، وسطحيين نسبياً .

ويضم الواقعيين العلميين والوجوديين معـاً معسكر واحد ، باعتبـارهم « خصوم النزعـة الاعتقادية » . وقد قال فيلسوف شاب : « ان الاعتقاديين ( او الدوغماتيين ) هم رجال الماضي، وهم غير اخلاقيين ، يخـافون ان تهتك المنـاهج المنطقية الستار عن مذاهبهم الحمقـاء » . وسألته : « باي معنى تعتبرهم غير اخلاقيين ؟ » فأجـاب : « هم غير اخلاقيين في مراسهم اليومي؛ فهم يحاولون قمع خصومهم عن طريق الادارة. وحين يستطيع شخص ان يبرهن على شيء ما فانه لا يحتـاج الى وسائل غير مشروعة » . وكل من فريقي الواقعيين العلميين والوجوديين يعتبر الفريق الآخر «تقدمياً من النـاحية الاجتماعية » لأنهما كليهما يعـارضان الستالينيين الاعتقـاديين . وربما كانت وحدتهما السياسية هذه شاهداً ضد النظرية التـاريخية المادية للافكار ، من حيث ان اختـلافاتهم الفلسفية لا تناظر اية اختلافات سياسية، وربما كان هذا بالفعل بداية الفلسفة ونهاية العقائدية في الاتحاد السوفييتي.

وبطبيعة الحـال ، لا يستنفـد الوجوديون والواقعيون العلميون صور الفلسفـة الموجودة بين المفكرين السوفييتيين الشبان . وتنجذب طائفـة كبيرة ، ولا سيما في العلوم الاجتماعية، الى البرغماتية الامريكية . ولا يزال الاعتقاديون يصرون على ان البرغماتية صورة من المثالية الذاتية ، ولكن بعض المفكرين الشبان يتحولون الى دراسة بيرس وديوي. وهم يهتمون بايضـاح بعض المفـاهيم الغـامضة ، « كالمراس » . وهم يؤمنون، باعتبارهم ماركسيين، بان النظرية الاجتماعيـة الماركسية في الثورة تتأيد في « المراس » ، ولكن ما معنى هـذا ؟ فليست هناك مجموعة كبيرة من الثورات يمكن ان تجعـل مدى احتمالات الحدوث اساساً راسخـاً لمزاعمهم . وحين يواجهون سلسلة من الحالات الغـامضة في « المراس » ، فانهم يقترحون حلولاً غامضة واضحة الصلة بمنطق ديوي .

ويتبدى البحث الدؤوب عن فلسفة جديدة في حلقات المناقشة التي يعقدها الطلاب بمحض ارادتهم

والتي ظهرت مؤخراً في الجامعات . وهناك تفاهم ضمني بينهم على ان مناقشاتهم مخلصة وخاصة، ويجب عدم تبليغها الى السلطات . وقد استطعت ان اتعرف الى احدى هذه الحلقات ، ووجدت فيها مزيجاً عجيباً من المثالية السياسية وآراء طبقة الفنيين ، وحنيناً الى مزيد من الحرية الثقافية . وكانت الجماعة تتألف من حوالي اثني عشر من المدرسين الشبان والطلبة الخريجين . وبدأنا ذات مساء بمناقشة النظرية القائلة بان المثقفين هم الطبقة الحاكمة في الاتحاد السوفييتي . وقال احدهم : « هذا غير صحيح ؛ فانك ان نظرت في قوائم مناصب الادارة في المؤسسات الهامة والمراكز الكبيرة ، فستجد معظمها يشغله اشخاص غير متعلمين . ان من يحكم هم بيروقراطيو الآلة ، لا المثقفون » . واستطرد آخر في نفس المعنى: « اعتقد ان المثقفين يجب ان يحكموا . وانا أومن بحكم طبقة الفنيين . ان ما هو علمي هو اخلاقي ، وما هو اخلاقي هو علمي . فليس الافضل هو ما يقترع عليه غير المتعلمين والجهلاء ، بل الافضل هو حكم العلماء ». الا ان ثالثاً اعترض على ذلك ، وقال « انه رغم كونه عالماً هو نفسه ، فقد بقي شيوعياً ، وان المطلوب تحرير النظام — بالسماح بتداول الصحف والمجلات والابحاث والاحصائيات الاجنبية ، كيما يصبح في وسعهم اجراء مقارنات لها معنى » .

وأثار آخر حديث لي في معهد الفلسفة عصفة من الهجوم البيروقراطي العامي من جانب المدير . فقد طلب مني ، وقد اكملت جولاتي في الاتحاد السوفييتي ، ان ألقي تقريراً ختامياً عن انطباعاتي عن الفلسفة وعلم الاجتماع هناك. وكنت راغباً عن ذلك ، واوضحت للمسؤول في المعهد اني لو تكلمت فان كثيراً مما لدي ان اقوله لن يبعث على الرضى . فقال انهم يعتبرونني صديقاً ، وان المعهد كان قد استمع الى احاديث في الماضي من زائرين امريكيين ذكر اسماءهم . الا ان الاسماء المذكورة كانت كلها ، ما عدا اسماً واحداً ، لشيوعيين امريكيين او توابعهم ، وألمحت الى انهم ربما انبأوا مضيفيهم بما كان يطيب لهؤلاء ان يسمعوه؛ اما المستثنى فكان استاذاً لعلم الاجتماع اقام في البلاد فترة اقصر من ان تعلمه الكثير عما يجري بالفعل . ولكن المسؤول ألمح مشيراً الى انها ستكون مناسبة جديرة بالاهتمام، ولا سيما للجمهور الذي قال انه سيتألف من الباحثين الشبان الذين جرت بيني وبينهم مناقشات فردية مراراً عديدة. ولكن في اليوم الموعود ، وبالرغم من وجود الباحثين الشبان، احتكر المناقشة العقائديون الاكبر سناً والذين قلما اسهموا في اجتماعاتنا السابقة .

وهكذا بدأ الاجتماع. قلت ان الفكر السوفييتي هو في مفترق الطرق ، واحسن وصف لحاله هو عنوان قصة تورغنيف « في العشية » . واقترحت ان اعرض مشاكل لا اعرف الجواب عليها ، ولا اعرف كيف اواجهها لو كنت في مكانهم . ولكني كنت قد تحادثت مع العلماء والطلبة في المعاهد والجامعات في سلسلة من « المحاورات والمقابلات »، وهي اعرق منهج فلسفي في العالم . وأود ان اقارن دراساتهم الاجتماعية بما يحدث في امريكا .

ويبدو لي ان العلم الاجتماعي السوفييتي قد اخفق في مجابهة عدة مشاكل هامة . فلم يكن هناك بحث في صراع الاجيال . فبينما تجري في امريكا حالياً دراسات عديدة عن حركات الطلبة ، هناك انكار لوجود اي صراع بين الاجيال في الاتحاد السوفييتي . ومع ذلك فقد وجدت ابان جولاتي شواهد جمة على هذا الصراع. ففي جامعة لينينغراد، في اجتماع مفتوح للمنظمة الشيوعية في دائرة اللغات، تحدى الطلبة وسخروا من الدفاع الذي حاول رئيس تحرير « نيفا » ان يعرضه تأييداً لاتجاه الحزب الجديد ضد الفن التجريدي . كما جرت مناوشات حديثة في جامعة موسكو الحكومية لم أشأ ان ادخل فيها . ومع ذلك فلم يبد اي عالم اجتماع سوفييتي استعداداً لدراسة ظواهر الصراع .

ثم تحدثت عن عدم وجود اي مقال او كتاب

في علم الاجتماع يحلل « شعيرة عبادة الشخصية » . وقلت ان الامريكيين يكرسون وقتاً طائلاً للدراسة الاجتماعية للقيادة السياسية . اما في الاتحاد السوفييتي ، فعلى الرغم من انهم يعرفون بوضوح كل شيء عن المشاكل العنصرية في برمنغهام والاستعمار في آسيا وافريقيا ، فانهم لم يستطيعوا ان يخرجوا اية دراسة علمية لأهم ظاهرة حديثة في علم الاجتماع السياسي في بلادهم هم . وقلت اني لا اعني بالتحليل العلمي تكرار عبارة خروتشيف عن اخطاء ستالين. فاني استطيع ان اقرأ هذه الخطب ايضاً . بل ان ما اعنيه هو التحليل الاجتماعي : كم بلغ عدد الضحايا ، عاماً اثر عام ؟ من اية الطبقات الاجتماعية اتوا ؟ ما هي انواع الاتهامات التي وجهت اليهم ؟ من كان ممثلو الاتهام ؟ كيف انتفع موجهو الاتهام بالاتهامات ؟ وقلت انهم يجب ان يدرسوا ايضاً مصير الاطفال الذين زج بآبائهم في معسكرات ستالين . فحين يقتل ملايين من الناس ويعذبون ، فليس من التحليل العلمي الاجتماعي في شيء ان يشار الى ذلك بأنه « خطأ » . وقد سألت اكثر من ١٥٠ من علماء الاجتماع والفلسفة ان كان اي واحد منهم يجري دراسة عن شعيرة عبادة الشخصية ، وأجابوا كلهم بلا استثناء : «ليست هذه مشكلتي». وانبئت ان المؤرخين في معهد الماركسية اللينينية كانوا يهيئون نشر وثائق عن فترة الشعيرة ، فذهبت الى المعهد للتحقق من صدق هذه الرواية وقابلت امين المعهد الذي انبأني بتأكيد انهم لم يضعوا اية مشاريع لهذا النشر . فقلت ان ماركس ما كان ليخفي مثل هذه الوثائق ابدا .

وحاولت بعد ذلك ان انظر في الدراسة الاجتماعية لحضارة الجماعات السوفييتية . وقلت انه بالرغم من انتقادهم للحضارة الامريكية ، الا انهم لم يدرسوا حضارتهم هم كما فعل الامريكيون بشأن حضارتهم . واستطردت قائلا انهم لم يدرسوا العواقب الاجتماعية لربط التربية الاخلاقية عندهم بالنماذج التاريخية — صورة لينين بزي صياد في حانوت للبنادق ، او لينين يلعب الشطرنج بنادي الشطرنج ، او لينين مع الاطفال وهو يهيب بهم ان « ادرسوا وادرسوا وادرسوا » — وعرض شخصية ماركس باعتبارها النموذج لحياة الاسرة . وحين سئلت ، اجبت بان رسائل اليانور ماركس ، الابنة التي قتلت نفسها ، تبين ان الاسرة كانت تعاني شقاء عميق الجذور، يحتمل ان يكون احد عوامله ميلاد ابن غير شرعي لماركس من وصيفة البيت ، هيلين ديموث . وقلت اني في طريقي الى موسكو زرت المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي للتأكد من وجود وثائق مؤيدة بهذا الشأن ، فأنبئت بان الشواهد هي فوق كل مطعن. وبرح الاهتمام برئيس الجلسة ، وعلق احد زملائه بقوله : « هذا يتفق وعبارة ماركس: ما من شيء انساني غريب عني». وتلك هي النكتة الماركسية الوحيدة التي سمعتها في المعهد .

وكان على كثيرين من الحاضرين ان ينصرفوا في هذا الوقت لارتباطهم بامتحان لاحد المرشحين . واقترح رئيس الجلسة لقاء آخر ، ولكني قلت اني راحل وشيكا ، وأود ان اجمل بايجاز كل ما كان علي ان اقوله بشأن عملهم الفلسفي. وناقشت وصفي لموقفهم الفلسفي بانه « ضدية » كما ناقشت تطور « الوجودية السوفييتية » . وتكلمت عن الاهتمام بفرويد بالرغم من الصعوبة الكبرى في الحصول على مؤلفاته ، ثم استطردت مطوراً « قانون الطيف »، وانبثاق فلسفات شتى في الاتحاد السوفييتي ، من واقعيين نقديين على منوال رصل ، ووضعيين ، ومنطقيين رياضيين يعارضون الجدليين ، واولئك الذين يلحون على « المراس » ولا يتميزون عن البرغماتيين الامريكيين. واهتزت الرؤوس في انكار عنيف . واخيراً قلت انه ان كانت لي « رسالة اخيرة » ، فهي ان الفكر السوفييتي يحتاج الآن الى شخص يؤدي له ما ادى جون ستيوارت مل لانكلترا و رالف ولدو امرسن لامريكا — ان يبرز لا « الطبقة » ، ولا « الشعب » ، بل اهمية الفرد.